**المنهج الكيفي والمنهج الكمي**

تنقسم مناهج البحث في علم الاجتماع إلى **نوعين رئيسين: كمية وكيفية**. وتستخدم المناهج الكمية في إنتاج بيانات عددية أو إحصائية، أييرتبط مفهوم هذا المنهج بالكم أو الوصف ومدى قابلية الظواهر محلالدراسة للقياس. بينما المناهج الكيفية بصفة أساسية في إنتاج بيانات حول

الخبرات والمعاني الشخصية للفاعلين الاجتماعيين. وتعتمد هذه المناهج في العادة على لغة الفاعل الاجتماعي أو على ملاحظة سلوك الفاعل.

يقع المنهج الكيفيعموماً في إطار المنهجالتحليليالمتسم بالعمومية والشمولية، على اعتبارأنه يمكننا القول بوجود تحليل كيفي وآخر كمي أو مقارن.

إذن، مصطلح البحوث الكيفية مصطلح شامل يحتوي على أنماط مختلفة من البحوث في علم الاجتماع منها البحوث الاثنوغرافية، ودراسة الحالة، والبحوث الميدانية، والبحوث الطبيعية (التي تجري في مجال طبيعي)، وبحوث الملاحظة بالمشاركة. وتختلف هذه البحوث عن بعضها البعض في أسسها الفلسفية والتحليلية، إلا أن بينها جميعاً عدداً من المظاهر المشتركة تضعها في تصنيف واحد مقارنة بالبحوث الكمية.

يختلف الاستقصاء الكيفي عن الطريقة الكمية في دراسة الظاهرات الاجتماعية والسلوكية في أنها ترفض اعتبار أن أغراض وطرق العلوم الاجتماعية هي نفسها أغراض وطرق العلوم الطبيعية والفيزيائية، على الأقل من حيث المبدأ. فالأساس في البحوث الكمية سواء في العلوم الاجتماعية أو العلوم الطبيعية أنها تسعى نحو تحقيق واختبار النظريات وتفسير الظاهرات عن طريق تأكيد أنها مستمدة من الافتراضات النظرية. وتبدأ البحوث الكيفية من مسلم منهجي مختلف، وهو أن موضوعات العلوم الاجتماعية أو الإنسانية مختلفة في أساسها من موضوعات العلوم الطبيعية، ولذلك تتطلب هدفاً مختلفاً في الاستقصاء ومجموعة مختلفة من طرق البحث.

إذ تؤمن البحوث الكيفية بأن السلوك الإنساني مرتبط دائماً بالسياق الذي حدث فيه، وأن الواقع الاجتماعي)مثل الثقافات والموضوعات الثقافية، والمؤسسات، وغيرها ( لا يمكن خفضه إلى مجموعة من المتغيرات بنفس الأسلوب الذي يحدث في الواقع الطبيعي. بينما تعتمد الطرق الكمية في العلوم الإنسانية على نموذج التفسير الاستنباطي الاستقرائي. ويبدأ الاستقصاء بنظرية عن الظاهرة موضوع البحث. ومن هذه النظرية نستنتج مجموعة من الفروض التي تخضع بدورها للاختبار باستخدام إجراءات محددة مثل إجراءات التصميم التجريبي، أو السببي المقارن، أو الإرتباطي( ومع ذلك فإن المنهجين يكملان بعضهما بعضاً، علماً بأنهما يختلفان في نقاط أساسية، خصوصاً ما يتعلق منهما بموضوعية الباحث ودوره:

1. في البحث الكمي تكتسب استقلالية الباحث عن موضوع البحث قيمة كبيرة، بخلاف ذلك فإن البحث الكيفي يعود إلى الإدراك الذاتي للباحث بوصفه عنصراً أساسياً من المعرفة.
2. إن البحث الكمي يعتمد إلى درجة كبيرة على تقنين البحوث الميدانية، فتكون أسئلة الإستبانة وكذلك الإجابة محددة مسبقاً. أما المقابلات الكيفية فهي أكثر مرونة، وتتكيف مع الحالات المختلفة.

نرى فيما سبق، حسب رأي الباحثون الكميون بأن قيم الباحث قد تلعب دوراً في تحديد الموضوع أو المشكلة التي يبحثها، ولكن البحث الفعلي يجب أن يكون خالياً من تأثير القيم، أي أن الباحث يجب أن يتبع إجراءات لعزل واستبعاد كل العناصر الذاتية، مثل القيم من موقف البحث، بحيث لا يتبقى إلا الحقائق الموضوعية. وعلى العكس من ذلك فإن الباحث في الدراسة الكيفية يعتقد أن الاستقصاء مقيد دائماً بقيم الباحث ومعتقداته، ولا يمكن التخلص من ذلك، ويحب أن يكون الباحثون صريحين حول الدور الذي تلعبه القيم والمعتقدات في البحث، وذلك في جميع البحوث. ويعتقد الباحثون في الدراسات الكيفية أن عملية الاستقصاء مقيدة بالقيم والتقاليد في المراحل المختلفة للبحث، فهو مقيد بها عند اختيار المشكلة، ونوع البحث الذي يجريه، واختيار منهج البحث الذي يتبعه في استقصاء المشكلة، وفي طريقة تحليل

البيانات، وهل يجري بحثاً كيفياً أم بحثاً كمياً.

وهناك علاقة بين المناهج الكمية والكيفية من جهة والمنظورات البنائية والتأويلية من جهة ثانية. وبصفة عامة تبدو المناهج الكمية أكثر ملائمة للبحوث البنائية، والمناهج الكيفية أكثر ملائمة للبحوث التأويلية، ومع ذلك يوجد تداخل شديد في استخدام المناهج الكمية والكيفية، ما دام علماء الاجتماع يسعون إلى الحصول على كلا النوعين من البيانات. ويستخدم عدد كبير من علماء الاجتماع- وربما معظمهم- هذين النوعين لاستكمال البيانات.

وبالرغم من أنه من الصعب تطبيق المنهج الكمي في العلوم الاجتماعية كما هو الحال في العلوم الطبيعية، على دراسة بعض الظواهر الإجتماعية والسياسية والسلوكية، فإن الباحثين في هذه العلوم استخدموا بشكل ملحوظ في دراسة العديد من الظواهر الاجتماعية والسياسية، مثل الانتخابات، والرأي العام، والتنمية السياسية، والتنشئة الاجتماعية والسياسية وغيرها من المواضيع الأخرى. ويتطلب بطبيعة الحال إلمام الباحث في العلوم الإجتماعية بالإحصاء، ولاسيما بالموسوعة الإحصائية المعروفة باسم Spss)) لكي يتمكن من اختيار الأسلوب الإحصائي المناسب لوصف المتغيرات محل الدراسة. فمحور التركيز في هذا المنهج هو الإجابة عن السؤال كيف How)) تحدث الظاهرة، وليس لماذا تحدث الظاهرة كما هو الحال مع المنهج الكيفي.

**خصائص البحث الكيفي:**

لعل أهم ما يميز منهج البحث الكيفي هو جدلية الأصالة، أصالة في الاقتراب من المبحوث، وأخرى من الواقع، وتعني الأصالة أن الباحث يفهم الموضوع في بناه الخاصة وفي خصوصيته، وهناك البنية، أو إقامة بناء، وتعني فهم الحدث، أو الميدان من منظور نظري، وعام ومقارن، وأهم

خصائص تصميم البحث الكيفي هي:

1. **الانفتاح:** إذا كانت عملية البحث الكمي مقننة ومحددة، فإن عملية لبحث الكيفي تكون مفتوحة. المناهج الكمية مغلقة، وتتحكم خطوات البحث فيها بعقل الباحث، أما المناهج الكيفية فتعتبر البحث مجالاً وأفقاً مفتوحاً أمام الباحث والمبحوث للتعديل والتطوير. إن مبدأ الانفتاح يتضمن على الصعيدين النظري والمنهجي، **مجموعة من النتائج، وأهمها:**

- التأكيد على الوظيفة الاستكشافية للبحث الاجتماعي الكيفي.

- التخلي عن تكوين الفرضيات مسبقاً.

- إن البحث الكيفي يركز على البحث الميداني الاستطلاعي، وهذا ما يهمله البحث الكمي غالباً.

إن البحث الاجتماعي هو بحث اكتشافي إلى حد ما، اكتشاف ووصف ميدان الدراسة يكون على حساب الدراسة النظرية للموضوع، وهذا مأخذ على المنهج الكيفي. وان الفرضيات يعدل ويوسع بناء على البيانات التي تم الحصول عليها في عملية البحث الميداني. وعليه فإن النظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية لها طابع دينامي، ذلك أنها تتطور في أثناء عملية البحث

على أساس البيانات القائمة.

1. **البحث بوصفه متفاعلاً:** إذا كانت مناهج البحث الكمي تؤكد على المسافة بين الباحث والمبحوث في عملية البحث، فإن المناهج الكيفية بخلاف ذلك تؤكد على أن عملية البحث ينبغي أن تكون عملية تفاعلية بين الباحث، وبين الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافة معينة.
2. **الطابع الديناميكي بين البحث والموضوع:** إن فهم البحث عملية تفاعل واتصال بين الباحث والمبحوث، يعني أن العلاقة بين البحث والموضوع دينامية، أي إن هذه الدينامية هي ما تميز البحث وموضوع البحث.

وكما تقول **هوبف** فإن البحث الكيفي يهتم بالمقام الأول بنماذج التفسير والفعل، التي لها إلزام اجتماعي محدد، لكن هذه النماذج الجماعية للفعل والتفسير لا يمكن تصورها على أنها موجودة وغير متغيرة، وإنما يعاد إنتاجها وتتغير وفقاً لفرضيات علم الاجتماع الكيفي من خلال أفعال وتأويلات أعضاء المجتمع الفاعلين.

1. **التأمل النقدي للموضوع والتحليل:** يتميز البحث الاجتماعي الكيفي بالتفكير النقدي بالموضوع، أو تأمل موضوع البحث وعملية البحث. إن مبدأ التأمل بالنسبة إلى موضوع التحليل، أي الظواهر والعمليات التي ينبغي دراستها، يقوم على التصور النظري لمجال الموضوع ذاته. إن الفرضية الأساسية للنموذج التفسيري تكمن في افتراض التأمل النقدي لمعاني منتجات السلوك البشري اللغوية (الرموز، أفعال اللغة، التأويلات اللغوية أو غير اللغوية، والإشارات، والأفعال).
2. **التفسير:** يعني مبدأ التفسير أن نتوقع من الباحث الاجتماعي بيان الخطوات المختلفة لعملية البحث بقدر الإمكان، وتتحدد أيضاً القواعد التي ينبغي بموجبها تفسير البيانات التي تم الحصول عليها ميدانياً، ويتعين على الباحث الكيفي تفسير بياناته بشكل أفضل، وألا يقع فريسة للتكميم والترميز، كما هو الحال في البحث الكمي. فالبحث الكيفي فكري وعقلي وميداني، حتى الواقع الإمبريقي فإنه يبحث كإشكالية فكرية ومعرفية، بخلاف منهج البحث الكمي الذي يغلب عليه الطابع الآلي التقني.
3. **المرونة:** تتسم المقابلة الروائية بالمرونة، وبمساهمة المبحوثين في عملية البحث. في البحث الكمي يكون ميدان البحث معروفاً ومحدداً، لذلك لا وجود للانفتاح والمرونة. أما بالنسبة إلى الباحث الكيفي فإنه يتعين عليه أن يطور ويحدد عملية البحث، بحيث إن مهمته، تتمثل في أنه

يوجه البحث للحصول على البيانات والتفسيرات من الحياة الاجتماعية الإمبريقية، فالبحث يبقى متجذراً فيها.

وأخيراً، فإن هدف البحث الكيفي يكمن في كيفية طرح المشكلة وعرضها والحصول على البيانات المطلوبة.